المقاصد الخفية وراء الحركات الدينية المتطرفة

اضحوي الصعيب

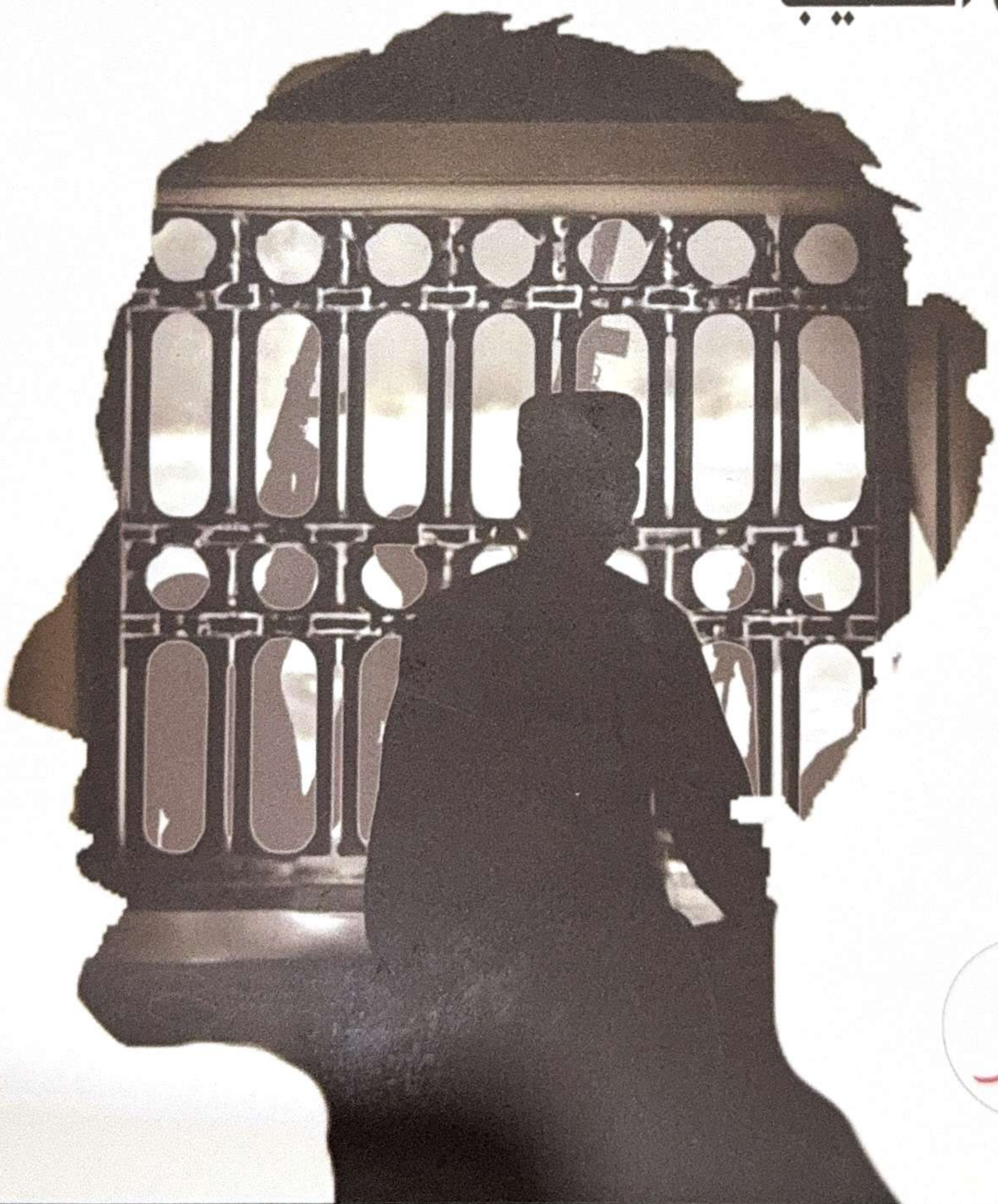

استقراء للواقع

ماركيز
للطباعة والنشر والتوزيع

المقاصد الخفية

وراء الحركات الدينية المتطرفة

240
ص 692 الصعيب، اضحوي.
المقاصد الخفية وراء الحركات الدينية المتطرفة/ اضحوي الصعيب. ط1. الموصل: دار ماشكي للطباعة، 2024
74؛ 21سم
1- التطرف الديني- 2- المقالات العربية.- أ- العنوان
م. و 2024 /4507
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (4507) لسنة 2024

حقوق الطبع محفوظة لدار ماشكي
Copyright Reserved for ©MASHKI

International Standard Book Number (I.S.B.N)
978-9922-738-56-7

دار ماشكي للطباعة والنشر والتوزيع
العراق – الموصل – المجموعة الثقافية
هاتف: 9647701664335+
البريد الالكتروني: mashky2019@gmail.com

لا يجوز نشر اي جزء من هذا الكتاب او تخزين مادته بطريقة الاسترجاع او نقله باي طريقة كانت او ترجمته الا بموافقة خطية من صاحب الحقوق.

الآراء الواردة في هذا الكتاب تخص المؤلف فقط والدار ليست مسؤولة عما ورد فيه

تصميم الغلاف: باسم محمد
التنـــضيـــد: علي عبدالمنعم

المقاصد الخفية

وراء الحركات الدينية المتطرفة

اضحوي الصعيب

استقراء للواقع

الطبعة الأولى

2024

مقدمة

لكل وظيفة شروطها، فلكي يصبح المرء حارساً او جندياً او ضابطاً لا بد من تحقق شروط محددة عند المتقدم لشغلها. والشروط تزداد كلما ارتفع شأن الوظيفة، فالشروط المطلوبة لتعيين مدير غير تلك الخاصة بالفراش. اما الغريب في امرنا فهو ان الوظيفة الاخطر من وظيفة المدير والوزير لا يتطلب شغلها أية شروط! تلك هي وظيفة رجل الدين.

لا جدال في ان المركز الاجتماعي لرجل الدين أهم بكثير من جميع الوظائف الحكومية. فأولئك موظفون يخدمون ردحاً من الزمن ثم يمضون مشكورين او مذمومين حسب أداء كل منهم، بينما يبقى رجل الدين رجلاً للدين مدى الحياة بل ان بعضهم يستمر تأثيره بعد أن يموت.

الموظف يُكافأ اذا احسن ويعاقب اذا أخطأ، اما رجل الدين وحسب السنة التي سنوها لأنفسهم فإنه يثاب حتى عندما يخطىء لأنه اجتهد بنيّة (الخير). ومع ذلك لا يطلب منه المجتمع شهادة علمية او سيرة ذاتية

او عمر او سلامة حواس.. كل المطلوب ان يطيل لحيته ويلبس الرداء المتعارف عليه ويلهج بالتعابير الدينية ليتسنم المركز المرموق. ثم وبقدر من التمثيل عند زيارة المرضى وحضور المآتم يبدأ العوام يتبركون به، والويل لك ان تجرأت على انتقاده مهما كان رأيك صائباً.

يستطيع اللص ومرتكب الفواحش والمجرم ان يصبح على حين غرة رجل دين ذائع الصيت نافذ الكلمة يشار اليه بالبنان. ولا يكون ماضيه السيء مأخذاً عليه بل نقطة لصالحه، فالناس يتخذونه آية على قدرة الله في هداية الفاسقين وتحويلهم الى تقاة. ترى الناس في أحاديثهم عنه يبالغون في وصف مساوئه القديمة ثم يبالغون في وصف ورعه الحالي لتأخذ قصته نفساً ملحمياً يخطف الالباب. وهو نفسه عندما يتحدث للآخرين يذكر بتفاخر كم كان ضالاً وعاصياً قبل ان يحدث في روحه الانقلاب وتصطفيه العناية الربانية لجادة الصواب. وطبعاً لا بد من ادخال عنصر الدراما في اللحظة التي ادت الى التحول والسبب المباشر الذي احدثها. كل ذلك والجمهور مصغٍ بذهول حتى لتنسكب الدموع من العيون خشوعاً لله. هل يوافق هذا الجمهور

ذاته على تعيين لص او زانٍ او مجرم معلماً لاولادهم؟ مستحيل، ولا مكان لكلمة التوبة في هذا المقام.

لا اريد من هذا الكلام نفي امكانية حصول الاستقامة عند البشر بعد حقبة من الانحراف؟ فأنا واحد من الذين لا ييأسون من الانسان مهما أوغل في الرذيلة. لكني اقول وبمنتهى البساطة: ماذا يمنع شخصاً سيئاً رأى في امتهان الدين مهنة مربحة فدخلها بسوء نية ووظف فيها كل مواهبه التي كان يستعملها في النصب والاحتيال.. وظفها في مواصلة مقاصده الخبيثة باسم الدين هذه المرة! لا شيء يمنعه. وما نلاحظه من تقلبات وتناقضات وفظاعات بعض رجال الدين المشهورين يؤشر خطورة الامر. تجده متابَعاً في التواصل الاجتماعي من قبل عشرة ملايين شخص وتظن انهم معجبون بالخط الذي يمثله، فاذا اقتضى الظرف السياسي ان ينتقل من النقيض الى النقيض.. وتدخل صفحته وانت متأكد من ان تلك الجماهيرية الطاغية قد تلاشت تُفاجأ بأنها على حالها وربما ازدادت. هنا تكمن الخطورة.

الخلاص من هذا الوضع الشاذ والمدمر يحتاج وعياً من نوع آخر.. الوعي القادر على خلع القداسة عن الاشخاص الحاليين والماضين، والتعامل مع الشؤون

الدينية بالعقل والمنطق، فإذا ضاع العقل ضاع كل شيء واستبد الظلام.

ان عناصر التحرر من هذه العبودية الرهيبة غير جاهزة الان في اي من بقاع وطننا الكبير، لكنها قادمة على الطريق.

نماذج من المقاصد الخفية

الدين بمفهومه الروحي الصرف غير موجود على ارض المجتمع. ان وُجد انما في عتمة دير او تكية او صدر امرىء نادر ليس من طينة البشر. فإذا رأى المعتكف أن عليه واجباً اجتماعياً يؤديه لله، وغادر صومعته، تلقفته الملل وفرضت عليه أن يندرج فيها او يعود من حيث أتى. فيعود او يفاضل بينها لاختيار اقربها للصواب وفقاً لمعتقده. وشيئاً فشيئاً يصبح واحداً من الآخرين الذين هم موضوع بحثنا. فنحن نبحث في الدين بصفته عنصراً من عناصر الحياة الاجتماعية يتظاهر الجميع باتّباعه والحقيقة أنه يتبعهم في اهوائهم ويتكيف حسب رغباتهم.

الدين قبل تفاعله مع البشر مادة خام تصلح لكثير من الاستخدامات المتباينة وحتى المتعارضة. فالقبائل البدوية المتناحرة، التي يسلب بعضها اموال بعض ويستحل دمه، يصلي افرادها ويصومون ويرجون رضا الله. وكل ما في السوق من غش وكذب وسرقة لا يتوقف الا ساعة في النهار حين يرفع الاذان فيهرع

الغشاشون والكذابون واللصوص الى المسجد وهم مؤمنون بأن تركهم العمل لأجل الصلاة كفيل بادخالهم الجنة. اما على الصعيد السياسي فالقضية اوسع وأشنع.. هناك ينكبّ الدهاة على هندسة الاديان لتصبح خادماً محضاً لرغبتهم في امتلاك المال والسلطة.

المال والسلطة هما هدف جميع المحركين للاحزاب الدينية، ولهذا لم يتشعب الدين فقط الى عشرات الاتجاهات وانما عُبّيء كل اتجاه بعصبيات تغلي كالمراجل. فالدين الاسلامي يقول بوضوح ان حساب المنحرفين عنه والمخالفين له من صلاحيات الله لا البشر (لا اكراه في الدين) فلماذا اذن لا تُترك صلاحيات الله لله؟. السبب بسيط وهو ان ترك العقاب لله وحده يحرم تجار الدين من التجارة الاكثر ربحية باطلاق.

لا يعترف واحد من اولئك التجار ان له غاية خاصة وراء حماسه الشديد لفرض رؤية دينية بعينها.. فالمسألة كلها ابتغاء مرضاة الله، وهنا تكمن القضية الجوهرية التي تجعل الدين سلاحاً لا يضاهى في الصراعات الاجتماعية. فالحزب السياسي يعلن صراحة انه يسعى لأخذ الحكم، وبذلك يكون في نظر العوام

جشعاً بالمقارنة مع الحركات الدينية التي تقول ان هدفها تطبيق شرع الله.

الحزب السياسي يبدأ من الصفر في تجميع الناس واقناعهم واحداً واحداً بأن نجاحه يخدمهم. اما الديني فيشبه من يعترض مظاهرة حاشدة ويتسلق اكتاف متصدريها لرفع شعاراتهم عالياً. فهو يبدأ من جمهور عريض يعتقد أن الحل السحري لجميع مشاكله الحياتية يكمن في الرجوع الى الله.. جمهور جاهز لا ينقصه الا صوت جهوري يقوده في سبيل الله. ولأن الزعيق العالي من فوق اكتاف المتظاهرين لا يستقيم بدون شعارات متشددة عليك التفتيش بهدوء عما وراء (الموت لـ ...) و(يسقط الـ..).

خذ مثلاً: لم يتشدد رجال الدين في عصرنا ازاء قضية كما تشددوا ازاء الربا، مع ان الربا لم يرد في القرآن بقدر ورود الكذب والنفاق والاعتداء والقتل وغيرها من القضايا التي لا يتشددون تجاهها وانما يبحثون لها عن مسوغات!. ثم ان الربا ليس ظاهرة شائعة في مجتمعاتنا كما شاعت قبل نزول آيات تحريمها. الان يستدين الناس من بعضهم ويسددون ولا يخطر في بال الدائن ان يطلب اضافة فوق نقوده،

ويخجل من ذلك لدواع اخلاقية قبل الاعتبار الديني. والحقيقة ان الحرب الشعواء على الربا لا علاقة لها بالربا الحقيقي الذي هو استغلال حاجة المحتاجين لايقاعهم في حاجة اكبر والاثراء على حسابهم. فأنت حين تستمع لمتحدثهم على الشاشة تجد أن حديثه عن الربا منصب على قضية البنوك والفوائد.. وهنا بيت القصيد.

لنفترض شخصاً سنحت امامه فرصة مشروع انتاجي مضمون النجاح وأعوزه المال، فاقترض من البنك بفائدة. وأموال البنك لمودعين يتقاضون عليها فائدة ايضا. ونجح المشروع فاشتغل فيه عمال كثيرون، وأنتج فسدّ انتاجه حاجة في السوق. أين موضع الاستغلال في العملية كلها؟. من هو الطرف المتضرر؟. ولنفترض أن بنكاً أفلس وضاعت اموال زبائنه، هل يتوجب الغاء قطاع المصارف وما يترتب على الالغاء من تعطيل لدورة الحركة الاقتصادية؟. المودعون وهم يودعون اموالهم يعلمون أن افلاس البنك ممكن الحدوث كما يعلم المسافر أن انقلاب السيارة ممكن ومع ذلك يسافر عليها. وصاحب المشروع الانتاجي يعلم ايضاً بوجود احتمالية معينة للفشل ومع ذلك أقدموا لأن

الاستثمار بطبيعته ككل شيء في الحياة ينطوي على قدر من المجازفة.

لقد أصبحت المصارف جزءاً أساسياً من النشاط الاقتصادي في كل انحاء العالم. ولا يمكن تصور اقتصاد عصري بدون مصارف. فماذا يقول رجال الدين لمن يتهمهم باعاقة التقدم؟ جوابهم جاهز وهو البنوك الاسلامية (اللاربوية)، وخلاصتها أن لا تكون للاموال المودعة فيها فوائد محددة، وانما يقوم البنك بإشراكها في مشاريع ويحصل صاحبها على نصيبه من الارباح.

أغلب الناس لا يفهمون بهذه الامور وانما تاتيهم اشعارات متواصلة من البنك عن سير العملية التي وظفت فيها ودائعهم الى أن تبلغ نهايتها بالربح او الخسارة. فالمودع هنا قد يربح وقد يخسر، وهو يعلم مسبقاً بأن امواله عرضة للضياع فلا يلومن الا نفسه وحظه العاثر.

يمضي الشخص الى البنك الاسلامي حاملاً في جيبه النقود وفي نفسه وازعين ثقيلين: الاول أن البنك قد لا يكون المناسب اقتصادياً. والثاني ان البنك قد لا يكون المناسب شرعياً!. وبمجرد أن يجتاز العتبة الفخمة تتبدد العقبتان ويشرق وجهه بالابتسام. فالبنك الاسلامي أعد لمثل تلك الوساوس عدتها بقائمتين

طويلتين من علماء الاقتصاد وعلماء الشريعة.. الاولى تقيه الخسارة والثانيه تقيه النار.

لن نتوقف عند القائمة الخاصة بعلماء الاقتصاد لأنها تخرج عن موضوعنا، وننظر الى قائمة رجال الدين الذين اودعوا في البنك تزكيات بالصوت والصورة تزيل آخر الشكوك من قلب الزبون. فإذا هم ذاتهم الذين رآهم على الشاشات يحذرون من الربا ويتوعدون مقترفيه بجهنم وبئس المصير!. اولئك الذين سدوا امامه جميع الابواب تركوا له هذا الباب مشرعاً ووقفوا على اعتابه مرحبين بصفة مستشارين هذه المرة.

قد يقول قائل انهم مقتنعون فعلاً بهذا الامر ويحاولون صادقين إبعاد الناس عن مواطن الزلل. يصح مثل هذا الافتراض قبل ان نعرف حجم الاموال التي يحصلون عليها مقابل شهادتهم للبنك بالورع. انها مليارات الدولارات!!. ليست ثمناً للتزكية الدينية فقط بل وبأثر رجعي ثمناً للجزء الاول من الفتاوى الخاص بتحريم التعامل مع البنوك (الربوية)، فالعملية من شقين يكمل احدهما الاخر.

عندما توفي رجل الدين المعروف ونجم الشاشات اللامع يوسف القرضاوي كُشف النقاب عن

بعض ثروته في بنوك الخليج، وكانت بالملايين[1]. لم يكن تاجراً او رجل اعمال لكي تتوفر امامه فرص الاثراء بهذا الشكل. انه موظف براتب محدود فمن اين له ذلك؟. وأجابت على السؤال قائمة بأسماء البنوك والمؤسسات التي يعمل فيها مستشاراً او بالاحرى شاهداً دينياً على تقواها. فإذا هي بالعشرات. وهي تدفع الكثير لرجال الدين المعروفين مقابل استخدام اسمائهم للايقاع بزبائن. وطبيعي ان جميع رجال الدين الذين صنّع الاعلام شهرتهم بشكل ممنهج يصبحون مستشارين في البنوك الباحثة عن اموال تتحرك بفتوى.

رجل الدين بحكم تخصصه لا يفهم في امور الصيرفة، ولا علاقة له بتفاصيل عمل تلك المصارف وما اذا كانت نقية من عمليات النصب والاحتيال. فالمسألة بالنسبة له شهادة زور لخداع الناس يحصل منها على ملايين الدولارات. وبما أننا في زمن ينتشر فيه الغش على اوسع نطاق يتقدم لدينا سوء الظن بخصوص نزاهة تلك البنوك على حسن الظن.

---

[1] كان رصيده في بنك واحد من بنوك قطر 193 مليون ريال، تعادل اكثر من 50 مليون دولار.

فصاحب البنك الذي انفق قناطير مقنطرة من الذهب على مشروعه انما هدفه الربح قبل كل شيء وبكل الوسائل الممكنة. وماذا يمنعه من ايداع اموال الزبائن في بنك آخر رصين لينال عليها فوائد مضمونة يرسل بعضها لفريق منهم بزعم انها وظفت في مشروع وربح، ويقول لفريق ثان ان مشاريعهم لم تربح ولم تخسر فليحمدوا الله على السلامة. ويستولي على اموال الفريق الثالث على اعتبار انها ساهمت في مشروع وخسر، ويعزيهم بعبارات أسف منمقة راجياً لهم العوض في مشاريع قادمة.

هل يستطيع رجل الدين الذي زكى البنك ان يحيط بذلك؟ والاهم: هل يعنيه ذلك؟.

المقاصد هنا تخص نخبة مستفيدة مادياً، وهي رجال الدين الذين منعوا التعامل مع البنوك العادية ثم وجهوا الناس نحو البنوك التي تدفع لهم بغير حساب. الجمهور هنا لا علاقة له بالخطة.. انه يخاف الله ولديه اموال يريد تشغيلها دون الوقوع في آثام. فتلفت كالتائه بحثاً عمن يرشده الى الطريق القويم. تلفت يبحث عن صاحب الاختصاص (عالم الشريعة) ولن يجتذبه الا الوجوه المعروفة على الشاشات.

قديماً كان إمام الجامع القريب هو المرجع في تحديد الحق من الباطل، يقصده الناس في كل ما يطرأ على حياتهم من مستجدات ويعودون منه مطمئنين. لكن ثورة الاتصالات فتقت الحجب عما هو أعلى من ملا القرية بسنين ضوئية. رجال بالمظهر الديني المهيب ينطقون عبر الاثير وكأن اصواتهم تأتي من السماء. فباتوا هم الموجه الاعظم لسواد الامة ونُسي من دونهم مهما بلغ من العلم.

الدين عند العوام يحدده رجل الدين. ورجل الدين تحدده القنوات الفضائية. واهداف منشئي القنوات هي التي تختار هذا الرجل دون ذاك ليتحكم بعقول البسطاء. ساذج من يتوهم ان عملية الاختيار تجري اعتباطاً او لوجه الله. فالاعلام اضحى رديفاً للسياسة، وهذه المليارات المنفقة عليه مطلوب منها ان تثمر ككل مشروع استثماري. تصنيع الوجوه الدينية عبر الاعلام له اغراض متعددة، يشبه ذهباً مكنوزاً للمستقبل، فربما تحتاج في يوم من الايام ان تبني بيتاً ويكون المال جاهزاً بين يديك، او تشتري بندقية او تغري به من يغتال عدواً لك. انهم معين لفتاوى جاهزة تصدر كلما اقتضتها السياسة. ولا مشكلة في ان يناقض

جديدها قديمها طالما انها تخدم الغرض السياسي المناط بها.

الجهادي الفلسطيني المعروف عبد الله عزام ترك الجهاد في بلده المحتل وذهب في ثمانينيات القرن الماضي ليجاهد في افغانستان!. هذا ما كان يتطلبه المشروع الامريكي لينتصر على الاتحاد السوفييتي. المشروع الامريكي يمتلك جميع عناصر القوة عدا اللغة التي يخاطب بها المسلم العربي ويقنعه بأن الجهاد في افغانستان يتقدم شرعاً على الجهاد في فلسطين. انها مسألة موت وحياة لا يمكن اقتحامها دون قناعة دينية. هنا يبرز دور رجل الدين في تقديم الحجة الشرعية. فقال عبد الله عزام ان القتال في فلسطين ليس جهاداً في سبيل الله طالما ان بين المقاتلين اشخاصاً مسيحيين. وجود ابن وطنك المسيحي الى جانبك في الميدان لطرد الاحتلال ينفي الشرعية بنظرهم عن اقدس معركة واشرف معركة عرفها التاريخ.

والحقيقة ان الفتوى هنا ليست فقط تحريفاً شنيعاً للدين والاخلاق معاً وانما تنطوي على مغالطة صارخة. ذاك ان (المجاهدين) في افغانستان يوجد الى جانبهم مسيحيون ويهود ايضاً وامريكيون. فليس سراً ان

الامريكان دخلوا حرب افغانستان بكل قواهم، وخبراءهم يديرون العمليات فعلياً. وعزام وغيره يعلمون علم اليقين ان الهوية الحقيقية للحرب صراع دول كبرى تُستغل فيه الشعوب الجاهلة لتأدية ادوار لا ناقة لها فيها ولا جمل.

هكذا اصبح لكل مشروع دولي مُفتون تعدّهم آلة الدعاية الكبرى ليمهدوا لها الطريق عند الحاجة. والاعداد يتركز على تعريف الجمهور بهم وتلميعهم ليكونوا المرجعية التي تتجه نحوها الاذهان كلما نشأت معضلة. وعندما يصبح رجل الدين نجماً يستفيد من نجوميته على الصعيد الشخصي. فالمشروع الدولي الذي هيأه وأنفق عليه الكثير لا يبخسه الاستفادة من الشهرة كما لا يمنع النادي الرياضي لاعبه من تأدية اعلانات تجارية. فموضوع البنوك والربا لا يعني الجهات العليا للمشروع وانما حقل اكتشفه رجال الدين المشهورون بهدي من رجال المال فتم التزاوج. باب للشخص الذي يتحرج من ايداع امواله في البنوك العادية اوجده له الراسماليون، بفتوى، في بنوك وسيطة تنقل الاموال في مرحلة ثانية الى ذات البنوك.

في هذا المثال تنحصر المقاصد الخفية في النخبة من رجال الدين المستفيدين دون الجمهور الذي اتبعها ببلاهة. لذلك تبقى محدودة قياساً الى تجارب اخرى يُقنع فيها الجمهور بالمقاصد ولا يفتات عليه. تلك هي الحركات العبقرية. فالجمهور غير مهيأ دائماً للسير وراء كل ناعق. ولا حصر لأصحاب الطموح الذين لم يستجب لهم احد فوئدت تطلعاتهم في مهدها. وهذا أحد الفوارق بين القائد التاريخي وغير التاريخي. القائد التاريخي هو الذي يبتدع آيديولوجيا تلاقي هوى في صدور الناس فيتحولون الى خدم لطموحه الشخصي المغلف بأردية موضوعية جذابة. والامثلة كثيرة: فآل سعود على سبيل المثال لديهم مشروع سلطة لا ينقصه الاعتراف الذي جاء على لسان سفيرهم في بريطانيا خالد بن بندر بن سلطان[2] حين قال بالحرف (نحن قبيلة انتصرت في الحرب ولا علاقة لقيادتنا بالدين).

أدرك آل سعود في وقت مبكر اهمية الدين في تمكينهم واخضاع الناس لهم، وعملوا على استغلاله. غير ان عقبة كؤوداً اعترضتهم لا يمكن تجاوزها الا بخطة حاذقة، وهي ان المجتمع من حولهم قبلي صرف، قائم

[2] خلال استضافة جامعة اوكسفورد له أواخر آذار 2022

منذ الجاهلية على السلب والنهب والاقتتال. لم يغيّر منه الاسلام سوى الطقوس والشكليات. لقد مر الاسلام بأهل البادية مروراً عابراً لم يترك أثراً. فبعد عقدين فقط من وفاة الرسول الاكرم عادوا الى ما كانوا فيه من غزوات واقتتال. وحسْب الباحث ان يقرأ ديوان جرير كنموذج ليجد ان جل المفاخر والشتائم فيه ايام الجاهلية. يلجأ اليها ليس فقط من باب اعلائه الذاتي لها وانما ايضاً لأنها الاوسع صدى في نفوس جمهور يعتز بها اكثر من اعتزازه بمعارك المسلمين.

لو قال ابن سعود للقبائل البدوية من حوله ان دماءكم واموالكم عليكم حرام فانبذوا الاقتتال وتعالوا الينا لأعرضوا عنه وتركوه وحده. ولو ذهب هو اليهم على ما هم فيه لما قبلوه اميراً عليهم لأن لكل قبيلة امراءها المعروفين لا يتنازلون عن مراتبهم لأحد. وجاء ابن سعود بالحل العبقري الذي ازال به العقبة الكؤود من اساسها. وهو التوفيق بين النقيضين: روح القبيلة البدوية وروح الدين. كل ما تطلبه القبيلة ان تواصل الغزوات والسلب والقتل، فوافق لهم ابن سعود على ذلك حرفياً. وكل ما يطلبه ابن سعود ان تسمى تلك الغزوات جهاداً في سبيل الله، فوافقوا له عليه. وسارت القافلة بهذه الحمولة.

ان قتل كل انسان يعرض لك واستلاب ماله غير منطقي حتى في اعراف القبيلة فكيف بمدعي الدين واتباعه من مرددي السور والاحاديث. وبدأ البحث عن مسوغات دينية تبرر استمرار القتل والتسليب. وبما ان الناس في نجد متشابهون حد التطابق في ثقافتهم ومعتقداتهم ونمط حياتهم بات صعباً اعتبار هذا مسلماً وذاك كافراً. من هنا تم التركيز على ابسط الاشياء المظهرية لتكفير الآخرين وغزوهم. هذا اساس نشوء الحركة الاكثر تطرفاً عبر تاريخنا وسر قيامها على اساس الشكليات لتحديد مصائر البشر واستباحة دمائهم واموالهم.

وشاءت المقادير ان يوثق الوهابيون اعمالهم بأنفسهم كما وثقت داعش جرائمها، فلا يقال في وقت آخر ان الحديث عنها محرّف. لقد ظهر بينهم مؤرخ دقيق كتب كل حركة وسكنة في مرحلتهم الاولى، مرحلة المؤسس محمد بن عبد الوهاب وشريكه في الامر محمد بن سعود. انه حسين بن غنام المعاصر لهما. كتب عدة كتب اهمها (تاريخ ابن غنام)[3] بجزأين، والذي يعنينا

---

[3] عُرف بهذا العنوان تخلصاً من عنوانه الاصلي لطوله. وهو (روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام).

جزؤه الثاني المتضمن غزوات الوهابيين بقيادة محمد بن سعود، وابنه عبد العزيز، وحفيده سعود، اعتباراً من عام 1745، تاريخ التعاهد بين عبد الوهاب وابن سعود لنشر الحركة على ان تكون لابن سعود السلطة ولابن عبد الوهاب المرجعية الدينية.

تجد انهم يسمون أنفسهم (المسلمين) وكل من لا يخضع لهم كافراً او مرتداً او ضالاً.. والعلاج في الحالات الثلاث هو القتل. وما ان تعود غزوة حتى تبدأ اخرى للقتل والتسليب. وما لا يستطيعون حمله كالزروع مثلاً يقومون بتخريبه ويمضون.

لو قرأ الكتاب شخص بعيد عن العرب لتوهم فعلاً ان اولئك الناس كفار ومشركون وجب غزوهم. والحقيقة التي لا تخفى على أحد ان كل الناس في نجد من دين واحد ومذهب واحد وثقافة واحدة ونمط حياة متشابه. كل ما في الامر انهم يعتبرون الذي يرفض حكمهم كافراً او مرتداً او ضالاً لتبرير اخضاعه ونهب ماله. ثم وبعد استفحال الحركة وتغولها لم تعد تلك الصفات ضرورية للقتل والنهب.

اشعلت الوهابية حروباً وغزوات لا حصر لها، غايتها النهب والتخريب والقتل، والعنوان المرفوع هو نشر

الاسلام ومحاربة الكفار والمرتدين. ان الاعراف القبلية، في الجاهلية والاسلام، على ما فيها من تخلف وهمجية، متقدمة كثيراً على النمط الوهابي الذي قاده ابن سعود وأباد به العالمين في جزيرة العرب. ففي اعراف القبائل يعرف الرجل ما له وما عليه، ويسير مطمئناً حتى في ربوع القبائل المعادية. هناك فروسية ونجدة وتقاليد صارمة يلتزم ويعتز بها الجميع فقام الوهابيون بخرقها تحت اسم الدين وأحلّوا شريعة الغاب محلها. انهم يقتلون من يصادفونه في الطريق رغم انه ليس المقصود بالغزوة. ويحرقون الزروع ويقطعون اشجار النخيل التي هي مصدر العيش الوحيد للقرى. وعندما يقتلون الرجال يستاقون الانعام وكل ما تقع عليه ايديهم من الاموال تاركين الاطفال والنساء عرضة للموت جوعاً. ذاك ما سرده مؤرخهم حسين بن غنام تفصيلياً بالتواريخ والاسماء. وهناك حالات قتلوا فيها حتى الاطفال، منها موقعة الطائف صيف عام 1924 .

تفوقت الحركة الوهابية على ما حولها عسكرياً وفكرياً، وبسطت نفوذها على ارجاء واسعة من الجزيرة العربية. عسكرياً لأنها لم تقف عند حدود الثقافة البدوية في الغزو والاحتراب، وانما دفعتها الى اقصى مدى

يمكن تصوره. فالغزو عند البدو عنصر من مجموع عناصر الحياة البدوية، والقتل ليس غاية بحد ذاته وانما يحاولون اجتنابه قدر المستطاع. فجعلت الوهابية القتل هدفاً مرموقاً يتشوقون له ويتسابقون اليه فأرهبوا الجميع.

القيم التي يعتز بها البدوي ويعتمدها كقانون ينظم الحياة الاجتماعية نسفها الوهابيون من اساسها وأحلوا محلها نظاماً يقوم على سفك الدماء والخداع والغدر تحت مبررات واهية. فالبدو بطبيعتهم لا يقتلون الاعزل والمستسلم ولا يدخلون البيوت ولا يتعرضون بأي شكل من الاشكال لامرأة او طفل ولا يغنمون سوى الابل والخيل. فأسقط الوهابيون كل ذلك وراحوا ينهبون حتى الاواني ويدمرون البساتين ويجمعون الناس المستسلمين ليقتلوهم صبراً.

في البداية قالوا انهم لا يريدون أكثر من البيعة وتأدية فروض الدين، فلما استُدرج الناس الى الفخ بات لزاماً عليهم الاشتراك في الغزوات وممارسة كل ما تأباه النفس البدوية من جرائم. لذلك كرهها البدو وبدأوا يتفلتون منها دونما توقف وتواصلت الحروب. وطبعاً تنتصر الوهابية في نهاية المطاف لامتلاكها التنظيم

والاطار الفكري. فهي تطرح فكراً مخادعاً لا قِبل لأحد بمواجهته. انها قائمة على اساس الفكر الديني الذي يدين به الجميع من الناحية النظرية. فالذي يعتزم محاربة فكر معين عليه ان يتسلح بفكر آخر وهو ما لم يكن موجوداً في جزيرة العرب فوقع المجتمع في ارباك، ومن الطبيعي حين يكون المبدأ واحداً أن تحسم الامور للاقوى تنظيماً والأشد فتكاً. لقد حولوا القتال الى حرفة مستديمة، وبذلك تفوقوا على غيرهم.

ربما كانت الحجاز آنذاك المعقل الوحيد للفكر الديني في الجزيرة، وكان (العلماء) الوهابيون يتفوقون على اهل الحجاز في المناظرات المتكررة بين الطرفين ليس لأن أساسهم رصين بل لأنهم برعوا في سحب الخصم الى ساحتهم. لو تقابلت قوة مشاة مع قوة دبابات مثلاً تكون الغلبة لمن ينجح في جر المعركة الى الارض المناسبة لقدراته. المشاة يتفوقون في الارض الوعرة والدروع يتفوقون في السهل، والمعركة الحقيقية ليست معركة المدفع مع البندقية وانما معركة التكتيكات المؤدية الى الاشتباك في هذه الساحة او تلك. ونجح الوهابيون في جعل التفاصيل اساسيات، واخرجوا الاساسيات من ساحة النقاش.

كيفية التعامل مع تارك الصلاة والممتنع عن الزكاة والكاذب والسارق وامثالها موجودة عند كل الفرق، ويفترض ان لا تمثل الاختلافات الجزئية فيها مشكلة، الا أن الوهابيين ربطوها جميعاً بخيط واحد لتتحول الى ايديولوجيا متكاملة تفضي الى نتيجة واحدة تسبغ الشرعية على مجتمع الحرب الذي أنشؤوه بحد السيف، وهو ما لم يكن متوفراً لأي فرقة اخرى. فكانوا بذلك يتفوقون دائماً. وكان على الفرق الاخرى، وخصوصاً الاحناف في الحجاز ان لا يقعوا في تلك الحفرة، ويعودوا الى الاصل، ويناقشوا الاساس الذي استندت عليه الوهابية في فرض احكامها بقوة السلاح والخروج على ولي الامر العثماني. تلك هي نقطة ضعف الوهابيين التي لم يدركها خصومهم.

تستطيع كل فرقة اسلامية أن تطعن بالسلطان العثماني، بباطل او بحق، الا الفرقة الوهابية القائمة أساساً على طاعة ولي الامر وتقديسه. فهي تتبنى المذهب الحنبلي، مذهب الملوك، ولم تكتفِ باتّباعه وانما طوّرته ليصبح ديناً قائماً بذاته على تأليه الحاكم وطاعته مهما فعل، حتى عندما يناقض جهراً الآيات والسنن.

الخديعة الكبرى ان ابن سعود واءم بين الدين وروح القبيلة البدوية مؤقتاً الى حين ايقاع البدو في الفخ، ثم انتهج طريقاً ثالثاً يخلو من سماحة الدين ومن اخلاق البدو، مبتدعاً ديناً جديداً يتحول فيه الحاكم الى فرعون من دون الله، ويتحول رجال الدين الى سدنة بين يديه يفتون بما يرغب.

نهل ابن سعود من المال والسلطة باطلاق، وأعدّ لكل تفصيل فيهما العدة الشرعية تحسباً للمناظرات. لقد تجاوز بلا حدود كل ما ورد في التراث الاسلامي من سوابق، مستثنياً من ذلك سبي النساء رغم وجوده بافراط في ابجديات الغزو عبر التاريخ الاسلامي. فمع ان الوهابيين سمّوا خصومهم كفاراً او مرتدين لم يتجاسروا على استحلال نسائهم، والسبب حساسية الموضوع لدى البدو الذين هم عماد الجيش الوهابي. فكثرة زواجات (الامام) ابن سعود التي تعدت عند بعضهم حدود المنطق[4] لا تشير الى وازع اخلاقي يحول دون فتح هذا الباب لاقتناء النساء. فالحسابات السياسية وحدها منعتهم من تجشم هذه المخاطرة التي تنذر بانفراط عقد

---

[4] تزوج الملك عبد العزيز 44 امرأة بينهن قاصرات دون العاشرة.

مقاتليهم. ومع ذلك لجأ ابن سعود الى طرق ملتوية لبلوغ ذات الهدف دونما توسع[5].

ان موضوع السبي ذاته يدخل ضمن موضوع المقاصد الخفية وراء الحركات الدينية المتطرفة مدار بحثنا هذا. وكما يلي:

[5] عام 1796 غزوا جزيرة العمائر في الخليج، 35 كم شمال الجبيل. وكان مما غنموه 40 امرأة من ذوات البشرة السمراء.

وقفة لا بد منها
عند موضوعة السبي[6]

كل مكان لا يدخله النور يتعفن، وعندنا بؤرتان لم يدخلهما النور منذ ازمنة سحيقة، هما الدين والجنس، ان الاسئلة مصابيح مضيئة تتسلط على المجاهيل من اجل كشفها. ولم يُسمح للعربي ان يتساءل بحرية عن تلك المحظورات فضلاً عن ان يجيب بحرية. ثمة رقيب ذاتي خلقته الظروف التاريخية لهذا الانسان فجلس على منصة العقل لقمع التساؤلات حتى تلك التي تُطرح في السر، حتى مناجاة الضمير. لكن التساؤلات بطبيعتها ليست عملاً ارادياً يقرر الانسان الإقدام عليه او الامتناع عنه، انها حركة تلقائية لا تتوقف عن طرق الوعي الانساني منذ ان يستيقظ الى ان ينام. وحتى في النوم تواصل تشبثاتها بأضغاث من الاحلام وتزداد إلحاحاً كلما زاد عليها المنع. فكل ممنوع مرغوب كما هو معلوم. وانتجت لنا كتلاً سوداء نراها تتجول في شوارعنا ونشير اليها على انها نساء. لم نتوصل الى هويتها

---

[6] هذا المقال سبق نشره في كتابي (سقوط الموصل ومشروع تقسيم العراق).

بذكائنا او لأننا رأينا منها ما يدل على جنسها وانما فقط لعلمنا المسبق بأن تلك اللفائف السوداء امرأة. فيجنح بنا الخيال الى كل ما لا نراه منها. نطلق لخيالنا العنان ونغوص عميقا دون ان ندري بأننا نغذي العقدة التاريخية في نفوسنا.

الدين والجنس موضوعان مختلفان، والذي يعنينا في هذا المقال ليس اختلافهما بل تلاقيهما، ذلك التلاقي الذي خرج عن كل المألوفات في العلاقة بين مسألتين من مسائل الحياة. لقد اندمجا حتى بات الدين هو الجنس والجنس هو الدين.

نبغ في وعيي سؤال مبكر خلال ما كان معلم التاريخ يشرح لنا بفخر الفتوحات الاسلامية التي وصلت الى الصين واسبانيا مسبغاً عليها هالة ناصعة من القدسية، متوقفاً عند ما كان يغنمه الفاتحون من الجواري . فتلك لازمة لا يمكن تصور الفتوحات بدونها. قلت في سري لماذا لم يفتح العرب الحبشة ايضا وهي الاقرب من الصين واسبانيا ألف مرة؟!. أما يستحق ابناء عمومتنا الاحباش ان نخرجهم من ضلالهم ونهديهم الى طريق الجنة؟ ولم اجرؤ على التفوه بالسؤال رغم انه لم يبرح وعيي وظل يتحرك كلما فكرت بتلك الامور.

فاحتجت عقوداً من الزمن قبل التوصل الى ان الجنس هو السبب. فمن حيث الدين لم يؤمر العرب بإيصال الرسالة الى قوم دون قوم. ومن ناحية الغنائم التي تغنم من الامم المغلوبة فإنها موجودة في الحبشة كما هي في كل مكان. ومن ناحية السهولة العسكرية فإن العبور من جزيرة العرب الى الحبشة أيسر بكثير من العبور الى اوربا. بقي سبب واحد يرجح اسبانيا على الحبشة، ركنت اليه لأنني لم أجد سواه وهو ان السبايا الاوربيات والآسيويات أحب الى الذوق العربي من الحبشيات. لا شك عندي في ان هذا الامر لم يناقش علناً بين الفاتحين وقادتهم. انما هو مستقر بثبات في اللاوعي محركاً يخضع له الجميع دون ان يعلموا. وكان حرياً بـ فرويد ان يتخذ من المجتمع العربي مختبر دراساته بدل الاوربي لتكون نظريته أكثر اقناعا.

السبي عند العرب عادة جاهلية اكتسبت حساسيتها المفرطة كوصمة عار بما تدل عليه من هزيمة حربية. فكان المهاجمون يفضلون اغتنام النساء كوسيلة لتأكيد الغلبة إمعاناً في اذلال الخصم. فيجد الشعراء مادة أخصب في التغني عن نساء مستباحة من التغني بأنعام. من هنا كان ذوو السبايا يستميتون للحاق

بالمهاجمين لإستنقاذهن. ولذلك كان السباة لا ينتظرون حتى الوصول الى ديارهم ليباشروا ما بأيديهم من نساء، وانما ينزلون عند أقرب مفازة وينكحونهن فلا يحتاجون مزيداً من القتال إذا لحقهم الصريخ باعتبار ان الهدف المعنوي قد تحقق. ولتعد النساء بسواد يلقينه على وجوه الرجال. بهذا الشكل تطورت المسألة اجتماعياً ونفسياً الى ما يشبه الورم المتضخم في وجدان الرجل العربي وأضحى تبشيره بولادة انثى تبشيراً بعار. (وإذا بشروا أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) وقد يعمد الى وأدها ليأمن عاراً مستقبلياً يطاله منها عندما تكبر.

حاول الاسلام تخليصهم من تلك الرواسب المتكلسة في النفوس، فأبوا ذلك. ولم يعترضوا في ايام الوحي الا على آية واحدة نزلت، تلك التي تقول: (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة). جميع احكام الدين يجد الناس العاديون أنفسهم مقصرين عن الالتزام بها كما هو مطلوب الا واحدة يجدون فيها ان الدين قاصر عما يريدون الالتزام به.. انها موضوع المرأة. تحولت من انسان سوي عند العرب له ادوار في الوجود وبناء الحياة الى رمز للجنس

ومجلبة للعار لا بد من تغليفها بالكامل ومراقبتها ومحاصرتها واحاطتها بالظنون. كلما بولغ في تقييدها كلما تضخمت شهوة النزوع اليها في نفس الرجل. تلك مسألة طبيعية وفقاً لمبدأ الفعل ورد الفعل. فانتهى الامر بالشهوات الجنسية عند العربي ان تصبح داءً عضالاً لا يشفى منه الرجل حتى لو اقام في مبغى. انها عقدة متأصلة.

في الواقع هدف الاسلام لإخراج العرب من ذلك المرض المزمن الى الوضع الصحيح المتوازن، فحصل العكس وهو ان العرب اخرجوا الاسلام من الوضع الصحيح واركسوه في مرضهم. وجعلوا من الاحكام المتعلقة بالمرأة، على قلتها في القرآن، اساس العقيدة. واضافوا اشياء من عندهم ما انزل الله بها من سلطان. وانشأوا فقهاً واسعاً نابعاً من غرائزهم الجنسية يبيح لهم استلاب نساء العالمين واسترقاقهن جنسياً. وما زال الحديث عن الفتوحات يجذب العقل تلقائياً الى الجواري، فيتبادر الى ذهن السامع الجانب الجنسي من الموضوع. ولا يتطرق العربي للجانب المعاكس من الامر، وكأن الغزاة من الامم الاخرى لم يسبوا عربيات في حقب مختلفة من التاريخ ويفعلوا بهن ما يفعل العرب

بالسبايا. لقد سبي العرب في ازمنة ضعفهم بمقدار ما سبوا ايام قوتهم، تلك سنة من سنن التاريخ. لكن العربي يتورع عن تخيل ذلك حتى مع نفسه.

ليس في كتب التاريخ ما يشير الى ان الرسول دأب على سبي النساء في معاركه. وإن حصل شيء من ذلك في احدى المعارك فهو استثناء من السياق الواضح كالشمس. لكن العرب من بعده جعلوا ذلك الاستثناء هو القاعدة، مدفوعين بعقدتهم النفسية المتأصلة من زمن الجاهلية. وبات اغتنام النساء أهم اركان الحرب متجاوزين بذلك عورات الجاهلية بأشواط.

الذي حصل صبيحة الثالث من آب 2014 نفض الغبار عن تلك المومياءات في الروح العربية، فعادت للحياة بلمسة إصبع، وكان واهماً من ظنها تلاشت في عصرنا. وما كان أحد يتوقع في ذلك الصباح الكالح ان تسبى النساء لمجرد ان تلك الافكار البهيمية متوارية خارج الوعي. وتبين انها قابعة في اللاوعي بكامل حيويتها وجهوزيتها كأنما عدنا ألف عام الى الوراء. فانقض اولئك الوحوش على الفتيات اليزيديات يخطفونهن من بين ذويهن وفقا لأمر مدبر. وبينهم من تحدوه تلك العقد المزمنة من الشهوات الحيوانية. كانت

صدمة للإنسانية والتاريخ والعصر الحديث. ان يستيقظ ديناصور منقرض منذ ازمنة سحيقة ويبطش بلب الحضارة الجديدة تحت مسميات دينية بائدة لهو فجيعة لا حدود لها.

عقدة النقص دافع نفسي خطر

الحرب الطائفية الضارية التي اجتاحت المنطقة امتداداً لما عُرف بـ (الربيع العربي) ودامت ثلاثة عشر عاماً، وما زالت بقاياها شاخصة للعيان، تلك الحرب ورغم وضوحها، ورغم ان الحديث عنها مكرور، سنعود اليها بعد هذا المقال من منظور آخر. اما الان فنحاول استقراء ما يستظل بها من دوافع ومقاصد مستترة. ونبدأ بسؤال بسيط: هل ان المشاعر الطائفية وحدها مادة الصراع ام يوجد غيرها؟. مبرر هذا السؤال أن شعوباً من لون طائفي واحد، كمصر وفلسطين، استُهدفت ايضاً من قِبل المعسكر الطائفي السني!. ثم ان اليمن لا ينطبق عليها الفرز الطائفي التقليدي. فالزيدية مذهبياً وتاريخياً تخلو من موجبات التحسس التي يحملها السنّة تجاه الشيعة الامامية. فما مبرر الاستهداف الرهيب لهذه الدول اضافة الى العراق وسوريا ولبنان سواءً من جانب الحكام على شكل قرارات او من جانب أناس عاديين على شكل تأييد لتلك القرارات؟.

لا اريد نفي الاسباب المعروفة او التقليل من شأنها، وانما أضيف اليها دافعاً آخر يتعلق بمشاعر النقص لدى بعض الخليجيين تجاه هذه البلدان ذات الغنى التاريخي والعمق الحضاري الذي تفتقر اليه صحارى الجزيرة بدرجة مريعة.

ان قناة التواصل بين مشاعر الاعجاب ومشاعر الحسد مفتوحة ياستمرار في نفس الانسان، ولطالما انقلب الاعجاب الى حسد وكراهية، والعكس صحيح. وأشد ما يكون الحسد قاتلاً عندما يكون موضوعه أبدياً، غير قابل للتعديل. فالفقير في حسده للغني لا يعدم أملاً، ولو ضئيلاً، بأن يصبح ذات يوم غنياً وربما اغنى من محسوده. اما فتاة قبيحة فلا أمل في وجدانها بأن تتفوق يوماً على جارتها الجميلة، لذلك لا تكف عواطف الكراهية عن مراودتها مهما أوتيت من نقاء السريرة، ولا تكره زوال تلك الجميلة عن دنياها ولو بالموت. ذاك هو حال الخليجيين أمام الحضارات العريقة في جوارهم الجغرافي (العربي). لقد اكتسبوا في العقود الاخيرة تفوقاً مادياً لا يدانى على كل العرب ومعظم العالم، فعوّض جانباً من الخواء الذي لازمهم دهوراً، وحاولوا توظيفه في التغلب على الآخرين، سواءً خلال

عبورهم الى تلك البلدان بصفة سياح مترفين او خلال عبور الآخرين اليهم بصفة عمال وخدم وضيعين. وهو ما يفسر جانباً من التوجهات الثقافية هناك والتي لا تألو جهداً في محاولة التحكم بمجمل الثقافة العربية.

الاهتمام الملحوظ بتنظيم الفعاليات والمسابقات الثقافية، والانفاق عليها بإسراف، يمكن النظر اليه كسياق طبيعي في بلدان غنية تتطور في كافة المجالات ومنها رعاية الفنون والآداب، لولا ان تلك الرعاية مدنسة بشوائب لا تخطئها عين اللبيب. فالامارات التي برزت في هذا المضمار تفرض على الشعراء المتسابقين ان يتغنوا بـ (امجادها)، إما بالايحاء من خلال تشجيع الثناء عليها، او إلزاماً عبر تثبيت فقرات في برنامج المسابقة لذكر بعض معالمها.

ليس سراً ان الفنون المسموح لها بالتنافس في الخليج ذات لون سياسي محدد، بحيث اصبح معلوماً لكل نابغ في هذا المجال ما هي اوصاف النص المؤهل لطرق ابواب المال هناك. والموضوع من شقين اشرنا اليهما في مستهل هذا الكراس لدى حديثنا عن تصنيع رجل الدين بواسطة الاعلام، وقلنا ان الهدف الاساس سياسي يتعلق بتهيئة مفتين تحت الطلب، وهدف فرعي

يخص رجال الدين ذاتهم دون صانعيهم والمتعلق بمجال الاستفادة الشخصية.. وضربنا له مثلاً بظاهرة البنوك (اللاربوية).

فمما لا شك فيه أن المشروع الغربي . الصهيوني ينشط في بيئة نموذجية باستعمال الادوات الخليجية المتاحة بافراط مع تغييب شبه كامل للرأي الآخر، غير مستثنٍ حقل الثقافة ان لم نقل ان هذا الحقل يحظى بالاولوية لأنه المرشح لقيادة الحقول الاخرى. هذا الشق الذي يكمل حقل رجل الدين المشار اليه لا يدخل ضمن موضوعنا المعني هنا بدور عقدة النقص في انتاج سلوكيات سياسية واجتماعية.

نسمع بين فترة وأخرى ان الامارات عثرت على آثار يختلط فيها الجد بالهزل. فمن الاثار التي تحدثوا قبل ايام عن اكتشافها قنينة زجاجية تعود الى ما قبل سبعين سنة!!. هذا التلهف للحصول على ماض يعكس مأساة الفتاة القبيحة الى جانب الجميلات. لذلك في احدى المسابقات الشعرية طُلب من المشاركين وصف (قصر الحصن) وهو مسكن الاسرة الحاكمة قبل انفجار عائدات النفط.

واجه اصحاب الفكرة معضلة التحدي الموضوعي بين اعتباره آثاراً او حاضراً، ولا يد لهم في تحديد زمنه المعروف. فإن اعتبروه ماضياً يباهون به نمرود العراق واهرامات مصر فت في عضدهم ان بعض سكانه ما زالوا على قيد الحياة. وان اعتبروه حاضراً جلدتهم سياط برج خليفة من ارتفاع 830 مترا. وحيث ان الشعراء وبعد رحلة التجوال في انحائه ملزمون بترجمته الى قصائد رأيناهم كالمتنبي يمدح كافوراً بـ:

تفضحُ الشمسَ كلما ذرتِ الشمسُ بشمسٍ منيرةٍ سوداءِ

في السياقات الطبيعية لا يخطر ببال المبدعين ان يذكروا الماضي القاحل لتلك الاقطار، وأدى ذلك الى نشوء عقدة خليجية نجت منها الكويت لأسباب متعددة يشبه أحدها استثناء شخص من القتل اكراماً لسيده بينما قُتل رفاقه. تمتع لحظة بفرحة النجاة ثم انتبه لاحقاً الى أن بقاءه حياً دليل لا يزول على أنه مَسود. فقد نشأت الكويت بلا عُقد ردحاً من الزمن، وأسهمت في الثقافة العربية كأنصع وأنقى وأغنى ما يكون الاسهام في حين كان اقرانها الخليجيون يغطون في السبات. ولما افاقوا كان اللحاق بالكويت منتهى الطموح. ولحقوا بها

فعلاً منذ ان ندمت على اسباب خلوّها من العقد وأصيبت بما يسمى (مرض الخوف من المرض). وجاءت الاحداث الاخيرة (خليجي 24، ومسلسل دفعة لندن، وفشل ميناء مبارك الكبير) لتكشف انقساماً واضحاً داخل المجتمع الكويتي بين المصابين بعقدة النقص والمتراجعين عنها صوب مرحلة التأسيس الزاهية.

في السعودية سارت العملية على مراحل مختلفة، أثّر فيها التباين الكبير بين مكوناتها الاجتماعية. ومع ان المكون السائد هو المكون النجدي المماثل ثقافياً لشعوب الساحل الخليجي فإنه تأخر عن تحسس العقدة (عقدة النقص) لوجود احاسيس بالتفوق على اهل الحجاز. والحقيقة ان الانتصار على الحجاز واخضاعها منح النجديين شعوراً متناقضاً من القوة والضعف في عين الوقت. من جهة نظروا الى اهل الحجاز بتعالٍ ناتج عن حالة الغلبة العسكرية اضافة الى النظرة الطبيعية عند البدوي باحتقار الاخرين. يقابلها شعور بالضآلة امام المكانة الروحية للمقدسات الراسخة فيها مثل رواسٍ تتصل بالسماء. تلك الحالة المشوشة عبّر عنها الملك عبد العزيز عندما اطلق على نفسه عام 1926 (ملك الحجاز وسلطان نجد)، هذه الصيغة المركّبة التي

تذكرنا بانتقال العروش في اوربا الاقطاعية الى ملوك دول اخرى نتيجة للمصاهرات بين الاسر الحاكمة، وأسست لظهور الكونفدراليات في اشكال الدول، لها في الجزيرة العربية وجهة مختلفة. فالملك عبد العزيز لم يكن مشوشاً بل يمارس التشويش على اتباعه المتزمتين ريثما ينفذ الى ما يريد. وهو ما حققه بعد ست سنوات باعلان نفسه ملكاً على الدولة المترامية تحته والتي تفتقر الى اسم تاريخي، فرشمها باسمه العائلي (السعودية) وانتهى الامر.

في السعودية نوعان من الآثار لم يصبحا مصدر اعتزاز للمواطن. آثار مادية يشعرون نحوها بالكراهية لدوافع دينية. وآثار ادبية يشكل الشعر الجاهلي جزءها الابرز لا يعتقد الناس في تلك الانحاء انها تخصهم دون غيرهم من العرب. والحقيقة ان التراث الشعري للعرب يتساوى في الانتساب اليه كل العرب بمختلف اقطارهم. فالعراقي مثلاً لا يحس بأن المتنبي يخصه اكثر مما يخص المصري او السوري، ليس لأن المتنبي عاش زمناً في مصر او سوريا وانما لأن الاطلاع على عبقريته لا يستلزم سفراً الى بلد بعينه وانما بشراء كتاب. لذلك اصبحت الاثار المادية أقرب للخصوصية من المعنوية. انها غلبة الصورة

على الصوت التي جعلت التلفزيون يزيح الراديو عن طريقه.

عظمة المقدسات في الحجاز برّأت الانسان السعودي من اي شعور بالنقص حيال الدول المجاورة ذات الحضارات الكبرى، او دعنا نتوقع ان احساس بعضهم بالعجز عن مجاراة تلك الحضارات دفعه الى معاداة الآثار بالمطلق وتعميم محاربتها والقضاء عليها حيثما وُجدت.. فاذا تعذرت المساواة في الغنى لا بأس من المساواة في الفقر.

هكذا بدأوا بأنفسهم وأزالوا بيوت المسلمين الاوائل في مكة والمدينة وما حولها من آثار تتعلق بأقرب الناس للرسول، وحوّلوها بفظاظة الى مرافق عامة لخدمة الحجيج، نازعين عن ثراها كل أثر للقدسية.

لا ننكر الدافع العقدي من هذا الاجراء في حومة هوس المعاداة للشيعة وما يعظّمون من مراقد، لكن ملاحظات ذات مغزى تستوقفنا وتطرح علامات استفهام.. ذاك انهم وبينما كانوا يهوون بمعاولهم على آثار الرسول واصحابه كان متحفٌ يبنى في الرياض لحفظ آثار الملك عبد العزيز ومقتنياته الشخصية!. فمن الذي يدير هذه المتناقضات؟.

في اول حديث عام له بعد بروزه السياسي سنة 2015 تحدث الامير محمد بن سلمان[7] عن المقدسات باعتبارها مرافق سياحية. وقاد بعد ذلك حملة بهذا الاتجاه بتأهيل آثار[8] منهي عن زيارتها لأغراض السياحة حسب روايات المنظمة الوهابية ذاتها، فهل ادرك ابن سلمان ومن معه حجم الخسارة الناجمة عن ازالة الاثار الاسلامية والابقاء فقط على المعابد؟.

بنزع القداسة عن آثار الحجاز يعود الانسان السعودي الى نفس العقدة المتأصلة لدى كثيرين في اقطار الخليج الاخرى. وأصبحنا نلحظ بوضوح اذلالاً ممنهجاً تمارسه هيأة الترفيه وتشعباتها بحق المبدعين العرب والمصريين منهم على وجه الخصوص، حتى ليشعر المراقب أن ثارات قديمة تجري تصفيتها.

في اوج الضائقة المعيشية التي عاناها السوريون بسبب الحرب الاهلية والحصار عندما يتوجه الشاب السوري الى مكاتب السفر مستفسراً عن امكانية السفر الى الامارات للعمل يقال له بصلافة: ان كانت لديك أخت بوسعها الحصول على موافقة، اما الذكور فلا

---

[7] حديث لقناة العربية بث يوم 25 نيسان 2016

[8] مثل مدائن صالح والاخدود.

توجد موافقات لهم!!. هذا قرار حكومي وليس خلجات نفس يحتمل اثباتها جدلاً. ولكي يكون القرار مفهوماً اكثر لا بد من ربطه بأولياته المتمثلة بدور الامارات وغيرها من الخليجيين في تدمير سوريا وايصال شعبها الى هذا الحال.

وخلاصة هذه النقطة ان جيلاً واحداً من الخليجيين شهد طفرة الانتقال من أفقر شعوب الارض الى اغناها. وحين يغتني الانسان ولا تعود لقمة العيش بين شواغل حياته يتجه صوب الكماليات.. وهكذا اتجهوا وأصبحوا جزءاً من العصر، فأدركوا كما يدرك أعمىً يستعيد البصر كم هم متخلفون عن ركب البشرية. ولقد عملوا بمثابرة لتعويض النقص، وقطعوا اشواطاً بعيدة في مجالات العمران والخدمات والفن والرياضة. الا أن بعض الاشياء، تلك المتعلقة بالماضي، لا يمكن تعويضها. ويزيد من غصتهم أنهم محاطون من كل الجهات بأغنى الحضارات القديمة اشراقاً. حاولوا التعزي بأن الولايات المتحدة، سيدة العالم، بلا تاريخ ايضاً.. فهل المقارنة صحيحة؟. الولايات المتحدة في مناهجها الدراسية وفي كتب التعريف التي توزعها سفاراتها تدرج حضارات الهنود الحمر ضمن ارثها التاريخي، وبذلك حلت المشكلة التي لا يضيرها عدم حلها.

اما دويلات الخليج فلا هنود حمر في ماضيها ولا غيرهم. كل ما حصلت عليه من ماضيها ثروة النفط الناضبة.

والآثار ليست كل شيء بهذا الخصوص وانما ترتبط بها مفارقة شديدة الوقع على النفس الخليجية.. تلك ان الشعوب الحالية في تلك البلدان العريقة نهضت قبل الخليجيين وقادت حركة التحرر من الحكم التركي ثم الاوربي، وباشرت التقدم قبلهم بمراحل. اذ لم تكن اسماء بعض الامارات معروفة حتى لجوارها يوم ذاع صيت مصر وسوريا والعراق. هذا الترابط بين الماضي والحاضر أمضّ بعض الخليجيين كثيراً كما لو أنهم موصومون بنحس ابدي. فإذا كان الماضي قد رسخ ولا سبيل لتغييره ما زال الحاضر قيد الانشاء ويمكن تداركه بايقاف هذا الحيف ولو بالعدوان. هكذا نجد سبباً اضافياً للتآمر على بلداننا وايقاف عجلتها حتى يلحق بها ويجتازها المتخلفون عنها.

اذن توجد نوازع نفسية تبرر متعة التفرج على معاقل العراقة في العراق واليمن والشام ومصر وهي تدمر وتنهب وتذل شعوبها، وهو ما يفسر اندفاع بعضهم عبر الاعلام للتضامن مع اسرائيل. فهناك احساس مشترك، غير مرئي، بعدم وجود رابط وثيق يربطهم

تاريخياً بالارض التي يقفون فوقها كدول. ولهذا يكثر السياسيون الاسرائيليون من ترديد عبارة (دولة اسرائيل) كما يكثر الكويتيون من القول (دولة الكويت) وكأنهم غير مطمئنين على وجود هذه الدولة.. الامر الذي لا يخطر على بال المصري او اليمني.

لا اراني مبالغاً حين اقول ان ظهور الاسلام كان اهم حدث في التاريخ، وان الارض التي شهدت ميلاده وانطلاقه لا تحتاج مزيداً من عبق الماضي، شريطة الالتزام بتمثيله ولو شكلياً. اما اذا انقلبت عليه واعتبرت الحجاج سياحاً فانها ستفقد تلك الميزة ويشعر ابناؤها بعدم الاكتفاء.

بعد صعود ابن سلمان بحذائه فوق الكعبة، وبعد شموخ فندق فيرمونت الذهبي الى جانبها بقصد تقزيمها، وبعد تأهيل آثار العلى ومدائن صالح باتت الرسالة واضحة، وهي ان الامير ابن سلمان يتحرش بالتاريخ، الامر الذي يستحق ان نفرد له بحثاً.

محمد بن سلمان..
والعبث التاريخي

لا يشبه ابن سلمان الا ضابط لامع حاز ثقة القيادة العليا فأسندت اليه قيادة الجيوش قُبيل المعركة الفاصلة. وتقدم بها الى خط الصولة، وهناك اعتقل جميع الضباط المتشدقين بالعلوم العسكرية، مبقياً فقط من يقولون له: انت مونتغمري[9]. اما الجنود فأرسلهم الى بيوتهم في تصرف حار الجميع في فهمه وما زالوا حائرين!.

المشروع الطائفي جرى العمل عليه قبل ان يولد ابن سلمان، وأُنفق عليه من الاموال والطاقات ما لا يمكن تخيله. فلما اكتمل وآتى أُكله قدح فيه ابن سلمان بزناده وأحاله الى رماد، لم ينج منه الا بؤر متفرقة في ادلب وصحراء تدمر. لماذا فعل ذلك؟ لا ادري! فاخترت لفظة (العبث) تفسيراً مؤقتاً يستمر حتى نعثر على تفسير اكثر وجاهة. فنحن هنا كعلماء الآثار كلما اكتشفوا هيكلاً

---

[9] برنارد مونتغمري قائد معركة علم الحلفا ومعركة العلمين الثانية من الجانب البريطاني عام 1942.

عظمياً لرجل أقدم من سابقه أطلقوا عليه (آدم) وألغوا التسمية عن الاول.

الطائفية وسيلة سحرية ومضمونة في تغيير الواقع العربي من معادٍ لاسرائيل الى عاشق لها. ولقد أدت هذا الدور بطريقة اعجازية وقلبت النفوس الى عكس ما كانت عليه. وأصبحت نسبة خطيرة من العرب بقيادة الاسلاميين السنة جاهزة للانقياد وراء اسرائيل من اجل محاربة ايران والشيعة دون مقابل وبحماس منقطع النظير. كانت الخطة في مراحلها النهائية عندما بزغ نجم ابن سلمان وأمسك لجامها بجدارة ودشنها بشن الحرب على اليمن.

انه قائد شاب ومتحمس، على رأس دولة كبيرة وغنية ومدعومة دولياً، والامور جاهزة بين يديه لا ينقصها الا اطلاق كلمة السر وضرب الجمع بالجمع. واذا به ينقضّ على قادة المعركة في معسكره، رجال الدين الذين انضجوا الطبخة، ويبطش بهم بطشاً. ثم يتجه الى ايران التي جُيشت ضدها كل تلك الجيوش فيصالحها، وسقطت الجمرة المتقدة في ماء بارد.

معلوم أن بين جنبيه حلم بناء الدولة العصرية على غرار التجربة الاماراتية، فهل كان رجال الدين عائقاً

أمام مسعاه لذلك أزالهم؟. لا اعتقد، فلم نسمع منهم اعتراضات مؤثرة عندما بدأ أولى خطواته بتحجيم هيأة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعدها تأسيس هيأة الترفيه وما تلاها. هل هو ضد الخط الديني بصورة مبدئية؟ ربما.. لكن ما الضرر من بقائهم الشكلي وقيامهم بالخدمات التي توكل اليهم!. لا ريب أن الامر يتعلق بالتركيبة الذاتية لهذا الامير وليس بأي ظرف موضوعي. وهنا الجوهر الذي يستحق دراسات وتحليلات لها اول وليس لها آخر.

توفر لمحمد بن سلمان يوم صعوده مطلع 2015 ما لم يتوفر لقائد آخر قط من دعم شعبي عابر للحدود يصبو لايصال الحرب الطائفية المستعرة منتهاها. فما أن وضع يده على سارية الراية حتى التفّت جموع مستعدة لتفجير نفسها أمامه، لا تطلب جزاءً ولا شكوراً، كل مبتغاها أن يعجّل باطلاق الصيحة لتندفع نحو سوح الوغى. حالة نادرة بلا ريب، وأندر منها أن يزهد ابن سلمان بكل تلك الجموع المضحية ويركلها بقدمه اليسرى ويمضي معرضاً عن ضجيجها.

الذي يرتبط بموضوعنا من الامر ان ابن سلمان رفض الاستفادة من خدمات رجال الدين رفضاً قاطعاً

وبدرجة لم يسبقه اليها سوى قلة من القادة التاريخيين الذين عملوا في ظروف مغايرة. فلينين مثلاً وصل الى السلطة في روسيا عبر ثورة عارمة تنزع الى التغيير الشامل، وكان يحمل فكر التغيير فسار على هديه غير ملتفت الى الكنائس الممجوجة آنذاك. وأتاتورك مثّل تياراً حاداً بين الاتراك المهزومين في الحرب الاولى، المتطلعين نحو الغرب بحثاً عن أدوات المنعة من خلال العلم لا الدين. وكان مدفوعاً برد الفعل الموتور على ما عُرف تلك الايام بـ (خيانة العرب)، فانقلب على كل ما يمت للعرب بصلة وفي مقدمة المرفوضات الدين باعتباره وافداً عربياً. فما هي دوافع ابن سلمان لمعاداة الدين في هذا التوقيت الحرج؟. او دعونا نصوغ السؤال بطريقة أخرى.. ما هي دوافعه للتخلي عن المشروع الطائفي لحظة اكتماله؟، كمن يضرم النار في حقله يوم الحصاد!. لو كان له رأي آخر من الصراع الطائفي لاعتمدناه عذراً نبرر به سلوكه العجيب، الا انه سائر على ذات الطريق!. فبعدما اعتقل القائد ضباطه المتمرسين، وسرّح الجنود، بقي مرابطاً عند خط الجبهة باصرار يثير العجب.

لو أنه يتكلم لأغنانا عن كثير من التخبط في محاولة تفسير أفعاله، الا انه مارد أخرس. لذلك حاولتُ الاتيان ببعض الفرضيات المعقولة، وكانت جميعها في غير صالحه:

الفرضية الاولى أنه يجهل أبعاد ما قام به حين دمر بيديه الجيش العقائدي الداعم له.

الفرضية الثانية اعتداده الزائد بنفسه والاغترار بقدراته الذاتية على انجاز الدولة التي يحلم بها دون شركاء يشاركونه الفضل في ذلك، فأزاح الجميع معتمداً فقط على مجموعة ضيقة من الكوادر المخلصة له.

الفرضية الثالثة انه يكره رجال الدين الى حد ان مزاجه النزق لا يطيق بقاءهم مدة اطول مهما كانت عوائد هذا البقاء.

أن الخوض في هذا الموضوع لا يستقيم دون التوقف ملياً عند هذا القائد. تجاوزه حتى تتضح خصاله التي لا بد ان تتضح مع الوقت يخل بالبحث. لذا نتناوله وان بالتساؤلات اكثر من الاجابات. والتساؤل المركزي بهذا الصدد: هل أن تخليه عن الوهابية وجيشها العرمرم يقود وراءه تخلياً عن المكانة الروحية لبلاده؟.

نعرف ان المقدسات باقية في مواقعها الجغرافية بغض

النظر عن توجهات الحكام، الا ان هذا البقاء يمكنه التوقف عن العطاء السياسي متى اعرضت عنه السياسة. فالفاتيكان لا يضيف اليوم اهمية سياسية لايطاليا العلمانية. والحال يمكن تكراره اذا واصل ابن سلمان السير نحو الوجهة التي يبدو انه قاصدها.

الى وقت قريب كان ينافس الاخوان المسلمين والدول المنقادة لهم كتركيا على زعامة العالم الاسلامي. وكانت له ارجحية رغم الغموض الذي يكتنف تفكيره. اما الان فنشهد بالملموس ان مكانة السعودية تتآكل في هذا الجانب بتعمد من حاكمها الساعي بهمة عالية لابرازها كنموذج عصري، او بالاحرى نصف عصري. فهل يعمل على اطلاق نصف الحريات على اوسع نطاق، وكبت النصف الآخر بقوة لم تشهدها بلاده ذاتها منذ سبعين عاماً؟. لعله يعتقد ان التوسع في النصف الاول يشفع له امام المجتمع الدولي عن تقييد النصف الثاني. فهو يعلم ان تقدمه لاستضافة كأس العالم سيضع قوانين بلاده على المحك امام المجتمع الغربي ومنظماته وقيمه. ومطمئن الى أنه قادر على الوفاء بالحريات الشخصية اكثر مما استطاعت قطر ان تفعل. اما الجوانب التي لا ينوي التساهل بها فإن المال كفيل بستر

عوراتها بما في ذلك رشوة المنافسين على استضافة المونديال ليكون اختيار السعودية تحصيل حاصل.

فماذا عن الاخوان المسلمين؟.

الاخوان المسلمون

الاخوان المسلمون في أبسط تعريف هم نزوع الاسلاميين للامساك بالسلطة. هم الفكر السياسي الحديث للتيارات الاسلامية التي رأت ان الاسلوب الوهابي في الوصول الى الحكم لم يعد ممكناً كما اثبتت ذلك الوهابية ذاتها عبر ما عُرف بالصحوة منذ ثمانينيات القرن الماضي والتي انتجت تجارب مرفوضة دولياً وحتى داخلياً كنظام طالبان.

يسعى الاخوان المسلمون الى دور سياسي يوازي حجمهم الجماهيري على امتداد هذا العالم. فقد مثلوا التيار الاوسع والاكثر امتلاكاً للتجارب والديناميكية. وحاولوا تطوير فكرهم السياسي بطريقة فيها الكثير من الضبابية للتوفيق بين منطلقاتهم النظرية الوافدة من مبدأ الشورى والخلافة وبين روح العصر التي تجعل الشعوب لا الله مرجعية الحكم ومصدر الشرعية. وانتهى بهم الامر الى الاقرار بالانتخابات وسيلة للوصول الى السلطة.

اقروا بذلك عملياً اكثر مما هو نظري. فالانسياق الآلي للناس وراء الشعارات الدينية يجعل من الغباء التفريط بفرصة الصعود على اكتافهم الى سدة الحكم.

لا سيما ان مخاض (الربيع العربي) أثبت أن الاسلاميين هم البديل التلقائي لكل حاكم يسقط. وكان لاستحواذهم على السلطة في مصر بالذات وقع مثير لأعلى درجات الاهتمام. فبعد أن كان لهم نائب واحد من مجموع 600 نائب في مجلس الشعب عشية الثورة اصبح للاسلاميين بعد الثورة ثلثا المجلس. هذا وهم غير مشاركين اصلاً في تلك الثورة العفوية التي قادها الشباب عبر التواصل الاجتماعي دون تنظيم مسبق[10].

بدوا قبل الثورة قانعين بممثلهم اليتيم في المجلس وهو يتلو البيانات بطريقة مضحكة من داخل البرلمان نيابة عن (كتلة) الاخوان التي لا تتعدى شخصه، معتبرين أنفسهم جزءاً من النظام السياسي القائم. فلما اندلعت الثورة لزموا الصمت وكأنهم أُخذوا على حين غرة. ولم يجاهروا بتأييدها الا بعدما تأكد انتصارها. وما

---

[10] يحق لحركة كفاية (الحركة المصرية من اجل التغيير) دون غيرها من الاحزاب والتيارات ادعاء تفجير الثورة.

هي الا ايام معدودات حتى اصبحوا أسياد الساحة بفعل القدرة السحرية للدين في الهيمنة على النفوس وتوجيهها.

لا شك ان قدرة الوهابية على السيطرة كانت محط اهتمام كل متابع بقطع النظر عن موقفه منها، ومحط اهتمام الاسلامي الحالم بالسلطة على وجه الخصوص. فهي وصفة نجاح مجربة ومضمونة، كلما قضي عليها وقيل انها انتهت تعود بذات الوسائل والآليات وتصل الى ذات النتائج. فلما تبدلت الاحوال اواسط القرن الماضي ونشأت الدول العربية المستقلة، ونشط الاسلاميون في المشرق العربي لأخذ دورهم السياسي، نظروا الى الوهابية كملهم، لا من حيث امكانية تكرارها وهي التي ألقت عصاها في معقلها الرئيس بل من حيثها محفزاً على ابتكار الوسائل المناسبة لكل زمن بهدف تولي قيادة المجتمع.

والحقيقة ان الاخوان المسلمين، وبحكم انفتاحهم على التراث الاسلامي بمدياته الواسعة، تركوا الابواب مشرعة بين اجزائه المختلفة. ففكرهم ينتشر على سعة هذا البحر المتلاطم من أقصى التطرف الى نهاية التسامح. لا خلافات قاطعة لهم مع احد بما في ذلك الوهابية وامتداداتها التي تتكرر باستمرار.

وكان يفترض، بحكم الاسس الآيديولوجية لهم كإسلاميين، أن يقودوا الخط العربي الاكثر تشدداً ضد الغرب والصهيونية. فوضوح النصوص الدينية من اليهود والنصارى ومن بيت المقدس ومن العدوان لا تسمح بأدنى مرونة في هذا المجال. الا ان ما حصل كان مغايراً بشكل مدهش. حاولوا أن يكونوا كذلك بادىء الامر وقالوا الكثير على شكل خطب لا فتاوى قاطعة، وشيئاً فشيئاً بدأت قبضتهم تفتر وصوتهم يخبو. والسبب ان السياسة راحت تعلو بينهم على الدين. ملّوا من الانتظار وفكروا كما فكر آل سعود قبل ثلاثة قرون في كيفية الاستثمار المبتكر للدين كسلّم الى الحكم. لا يحط من الفكرة ان تاتي مقلوبة هذه المرة. فالمفلّ يشد ويرخي اللوالب بنفس الطريقة، وحاجة المرء هي التي تقرر اتجاه الحركة. الدين في حقل السياسة مفل لوالب، اقتضت مصلحة آل سعود ان يديروه باتجاه الشد وارتأى الاخوان ان يديروه بالعكس. والغاية واحدة في الحالتين وهي الوصول الى السلطة.

ادرك الاسلاميون ان انتخابات حرة تكفل وصولهم الى الحكم بسلام. فأين السبيل الى تلك الانتخابات في ظل هذه الانظمة المستبدة؟. وهنا بدأت

الانعطافة الكبرى في مسارهم. الفكرة التي تبلورت لديهم عبر مخاض طويل ان الانتخابات مدخل مضمون لبلوغهم الحكم. والانتخابات غير واردة بوجود هؤلاء الحكام، فلا بد من سقوطهم. وسقوطهم لا يتحقق الا بتخلي الغرب عنهم. الكلام هنا ليس عن بلد بعينه وانما عن النظام السياسي العربي بكليته.

الغرب لا يتخلى عن الانظمة القائمة ما لم يطمئن الى البديل. فالذي يعنيه مصالحه لا شخوص الحاكمين. اذن وجب طمأنة الغرب على ديمومة مصالحه. هنا طرح الاسلاميون أنفسهم كبديل آمن بكل ما يشتمل عليه الطرح من ضمانات (الدفع المسبق).

في الجانب الاخر كان الغرب يضيق ذرعاً بالانظمة العربية بسبب تخلفها وتقلباتها وحاجتها الدائمة الى الحماية. اضافة الى النقد المستمر الذي تتعرض له الادارات الامريكية عن دعمها للمستبدين والقمعيين وهي التي ترتكز دعايتها الخارجية على نشر الديمقراطية والدفاع عن حقوق الانسان. فأن تظهر قوى قادرة على الوصول عبر صناديق الاقتراع، ولا تحتاج حماية، وفي نفس الوقت ملتزمة بصيانة المصالح الغربية لهو الانجاز الامثل.

كانت الحرب الافغانية خلال الثمانينيات بداية الارهاصات لهذا التوجه. فهي تحالف غربي اسلامي فاعل ولا غبار عليه. الا ان الطرف الاسلامي فيه ليس الخط المقصود بهذا المبحث وانما الخط الوهابي التابع للنظام السياسي الذي تقوده السعودية. لذلك لم تؤد التجربة الغرض الذي يأمله الاخوان. فبعد ان تحقق الغرض الامريكي من التحالف لم يكافأ الاسلاميون على ما أبلوا، وقلب الغرب والانظمة العربية لهم ظهر المجن، واعتُبروا ارهابيين ملاحقين.

في تلك المرحلة تسلل الاسلاميون الى الحكم في بلدين، احدهما (السودان) عبر انقلاب، والثاني (تركيا) عبر الانتخابات. وفشلت التجربتان في اقناع الغرب بدعمها. تجربة السودان لم تسعَ لاستحصال الدعم الغربي بدليل انها استضافت الجهاديين المغضوب عليهم من جانب الغرب، فكانت امتداداً لحقبة ما قبل التحول السياسي الذي نتحدث عنه. اما تجربة حزب الرفاه التركية بقيادة نجم الدين اربكان فكانت مرشحة للتعثر كونها اول ظهور للاسلاميين في معقل العلمانية الاتاتوركية الشرسة. فتكالبوا عليها واسقطوها رغم قناعة الجميع بأنها ستعود في بلد تحكمه الانتخابات

ويشهد تحولات كبرى صوب الجذور الاسلامية. وقد عادت بالفعل بعد عشر سنوات وتمكنت لتصبح النموذج الاخواني المطروح للتفاهم مع الغرب. واقتنع الامريكان في عهد اوباما بصواب التحالف مع الاخوان المسلمين في بلاد العرب كقوة تستمد شرعيتها من الانتخابات فترفع الحرج عن الدعم الغربي لها، وتحفظ المصالح الغربية وفي مقدمتها التخلي عن معاداة اسرائيل.

مرت جهود التفاهم بين الطرفين بمراحل منذ التجهيز لاحتلال العراق. فقد انخرط اخوان العراق في الاتصالات التي سبقت الغزو ومهدت له، واسفرت عن دخولهم القوي في ادارة عراق ما بعد الاحتلال. فأُلقي على عاتقهم واجب اثبات الانضباط المطلوب لاقناع الولايات المتحدة بجدوى التحالف معهم كبديل للانظمة التي تسقط. ونجحوا في الاختبار. فلما اندلعت الثورة المصرية بعد الثورة التونسية كانت الادارة الامريكية على بينة من امرها، ووضعت كل ثقلها لصالح الثورة وهي تعرف ان ذلك الكم البشري غير المنظم سينقشع عن الاسلاميين. وضغطت بقوة وعلناً على الرئيس مبارك كي يتنحى. والتزم النظام الجديد، المنتخب، بما عليه

كحليف للغرب. سار على خطى النظام السابق بخصوص اسرائيل وزاد على ذلك أن ساهم بتنفيذ المشروع الامريكي في المنطقة المبني على تأجيج الحروب الطائفية بهدف تغيير المنطقة ورسم خارطة جديدة تكون فيها اسرائيل عنصراً اصيلاً له الصدارة في ادارة المشهد.

الحرب الطائفية التي اندلعت في المشرق العربي بعد عام 2011 قرارها امريكي كما اسلفنا، وكما اعترف بذلك مسؤولون امريكيون بينهم هيلاري كلينتون وترامب. وتمويلها خليجي كما اعترف وزير خارجية قطر السابق تفصيلياً وبالارقام. والتنفيذ تولاه الاسلاميون السنة بمشاربهم المختلفة حيث كانت فتاوى الجهاد تضج بها الشاشات. والهدف له جانبان متلازمان: الاول اسقاط سوريا لاكمال الطوق المهادن حول اسرائيل. والثاني تضييق الخناق على ايران لاجبارها على التخلي عن طموحاتها التوسعية في المنطقة.

ولم تسقط سوريا كما كان مأمولاً، وصمد العراق، وأثبتت ايران براعتها في استثمار الفرص. فقد وفرت الهجمة الارهابية لها ظرفاً خصباً للدخول العسكري بأشكال متعددة تحت ذريعة التصدي للارهاب

الذي يدعي الجميع محاربته. فازدادت قوة خلاف رغبة خصومها.

وحصل الذي لم يتحسب له الاخوان وهم يلقون جميع اوراقهم في سلة الغرب! كسبوا ثقة الغرب وخسروا ثقة شعوبهم، وتلك الطامة الكبرى. ضحوا بمبادئهم من اجل الوصول للسلطة لكن السلطة لم تنتظرهم طويلا.. فالحياة في حركة دائبة يخسر من يتعلق بأحد جوانبها ويهمل جوانبها الاخرى.

في المغرب على سبيل المثال حصل حزب العدالة والتنمية، الذراع السياسي للاخوان، في انتخابات 2021 على 12 مقعداً فقط من مجموع اعضاء البرلمان البالغ عددهم 395 . وكان له قبل تلك الانتخابات 125 مقعداً، أي انه خسر دفعة واحدة 113 مقعداً بما فيها مقعد زعيمه سعد الدين العثماني. وخرج من السلطة لم يجن منها الا عار التطبيع مع الكيان الصهيوني. ربما يبرر الاسلاميون هزيمتهم بوجود تزوير وما شاكل من المبررات لولا انهم على راس الحكومة التي ادارت الانتخابات. لقد حُرموا حتى من المبررات المطلوبة لحفظ ماء الوجه.

وفي العراق اكتسحوا عام 2005 اصوات المكون السني وانتزعوا اهم المناصب المخصصة له. وما هي الا دورة انتخابية واحدة ليرتكسوا الى الحضيض في انتخابات 2010 بأربعة مقاعد فقط بين اكثر من 80 مقعداً حصدها المكون. بعدها لم يجرؤوا على خوض الانتخابات بالاسم الصريح لحزبهم، وأخذوا يدخلونها متخفين في جيوب القوائم الاخرى ولا يحصلون على نتائج ذات بال.

مثل عصامي ثابر لإدراك الغنى وحرم نفسه من ملذات الحياة ليرفع نفسه الى مصاف الاثرياء، لكنه حين بلغ ذلك كان قد كبر ووهن بدنه ولم يعد بوسعه الاستمتاع بما جمع.

مرحلة الرومانسية الدينية تتلاشى بأسرع مما افترض كثيرون. قضى عليها الاسلاميون انفسهم بما اقترفوا من سياسات يخجل اعتى الوصوليين من اقترافها. الرومانسية الدينية التي ترشح الاسلاميين بديلاً لكل نظام عربي يسقط سقطت بدورها مبكراً بفضل تجربة الحكم الاسلامي في السودان ومصر وتونس والعراق وليبيا واليمن. لقد اختُبروا وامتُحنوا وفشلوا فشلاً ذريعا.

قد يكون بين الساسة الاسلاميين مؤمنون بامكانية تطبيق الشريعة في بلداننا عن طريق الامساك بالسلطة، فناوروا وراوغوا وكذبوا وتآمروا من اجل الوصول للسلطة كي يتسنى لهم بعد ذلك تنفيذ مشروع الدولة التي يعتقدون بها، فكانوا بذلك مثل قائد عسكري غامر بحركة التفاف خطرة لمحاصرة العدو لكن العدو أطبق على مؤخرته فبات هو محاصَراً. اما الاغلبية الساحقة منهم فطلاب سلطة فقط.. كما سنوضح ادناه.

واجه الاخوان المسلمون في تاريخهم الصاخب كثيراً من الامتحانات ليس بينها امتحان الفكر وقوة المنطق. وجودهم في المعارضة نعمة لا تقدر بثمن لأنها لا تتطلب منهم تنازلات صعبة. والتنازلات التي قدموها طوعاً كانت رشى للغرب وبعض الحكام لعلهم يسمحون لهم بالحكم. ولقد شاركوا بعد ذلك في السلطة مشاركات لم تشكل لهم تحدياً كالتحدي الحالي.

تجربتهم في مصر كانت قصيرة لا تتسع لأكثر من تأكيد التزامهم بالسلام مع اسرائيل ودعوتهم للجهاد في سوريا. وفيما عدا ذلك بقيت المراقص ودور البغاء والبنوك (الربوية) مشرعة الابواب كأن نظاماً علمانياً لم يسقط ويحل محله اسلامي. أما في العراق فقد نجحوا

نجاحاً باهراً في تأجيج الطائفية بالاشتراك مع شركائهم من المعسكر الشيعي. والطائفية حرب لا يُطالَب خلالها السياسي ببناء وطن بل انها تتطور الى سياج تمارس وراءه جميع المحرمات وفي مقدمتها اكبر عملية نهب للمال العام عرفها التاريخ. وذات الشيء ينطبق على اخوان اليمن.

في بداية ظهور الاحزاب الاسلامية مطلع القرن الماضي كان القائمون عليها جادين في مسعاهم لتحكيم الشريعة. كانوا صادقين مع انفسهم وواضحين في النظر الى السلطة كوسيلة لاقامة النظام الاسلامي. كانوا مقتنعين بأن ذلك ممكن بمجرد حيازة السلطة. لذلك اعتبروا الحكومات القائمة خارجة على الاسلام وكفّروها، وأصبحت الآية الاكثر تداولاً في ادبياتهم (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الـ..) بصياغاتها الثلاث. وشاء الله ان يصبحوا هم الحاكمين في اكثر من بلد فلم يطبقوا الحدود التي احتجوا بها لتكفير من سبقوهم.

هل سمعت ان الاسلاميين وقد امسكوا بالسلطة قطعوا يد سارق او نحروا قاتلاً او جلدوا مذنباً؟ هل اغلقوا البارات والملاهي والبنوك (الربوية) في البلدان التي

باتوا اولياء امورها؟. اكثر من ذلك رأيناهم يوالون الامريكان ويقدمون لهم الدعم ضد بلدان مسلمة وشعوب مسلمة. فما هو جوابهم للمتسائلين عن هذا الخلل؟.

من البديهي ان عليهم تقديم اطار نظري (شرعي) للامر. فإما ان يكون تعطيل الحدود الشرعية جائزاً لهم ولغيرهم او انهم خارجون عن الاسلام ومدموغون بالآية التي طالما سلقوا بها الآخرين.

الان لا يختلف السياسي الاسلامي عن غير الاسلامي قيد شعرة إنْ في الفساد او في موالاة (الكفار) ضد المسلمين او في الدجل السياسي. اصبحت علاقتهم بالدين مثل رجل بلّاف ينحدر من عائلة كريمة، تنحصر علاقته باللقب الذي يحمله في تمرير عمليات البلف.. يقول انا ابن فلان فيثق به الناس الذين لا يعرفونه ويسلمونه اموالهم دون تحوطات فيأكلها.

مضى جيل من الاسلاميين كان يعتقد ان تطبيق الشريعة ممكن ولما وصل الى الحكم وجد نفسه عاجزاً. اما الاسلاميون الجدد فيعلمون مسبقاً انهم لن يطبقوا شريعة او بعض شريعة، وهم بذلك يمارسون الخداع عن وعي مسبق واصرار.

عندما كانت الاحزاب الشيوعية تقفز الى السلطة هنا وهناك اواسط القرن الماضي كان الناس وحتى البسطاء منهم يعرفون مسبقاً ماذا ستفعل بعد استيلائها على الحكم، ذلك ان لها برنامجاً محدداً ومعروفاً تعمل على تطبيقه دون كذب او رياء. فما هو برنامج الاسلاميين يا ترى عندما يصلون الان الى السلطة في هذا البلد او ذاك؟.

الكلفة الرهيبة التي دفعتها شعوبنا مادياً ومعنوياً من جراء حروب الارهاب انعكست على مجمل الموقف من الحركات الاسلامية. يضاف الى ذلك اننا في عصر مختلف عن عصر الوهابية. أيام الوهابية كان سهلاً اقناع اتباعها الجهلة بأن اكياس المال التي يتلقاها الملك عبد العزيز ثمناً لادواره في المشروع البريطاني انما هي جزية يدفعها الانجليز لقائد المسلمين المنتصر. اما الان فكل شاب يطوف العالم يومياً عبر هاتفه ويعرف كل ما يريد معرفته. وافتراض ان هذا الوعي لا يؤثر في مواقفه قصور نظر. فالناس اليوم ومهما اختلفت مذاهبهم السياسية ورؤاهم الاجتماعية لا يختلفون في ان التقدم العلمي هو الحل الجذري لكل ما تعانيه الامة من ضعف وتخلف. ولأن احاديث التيارات الدينية تنصب على

ترهات ممجوجة بدأ الشباب يتجاوزها بخطى حثيثة. فلما انتبهوا الى ضياع ما ظنوه مضموناً تولاهم ما تولى صاحب حنين عندما رجع بالخفين وأضاع الراحلة.

في خضم هذه الخيبة، وبينما الاسلاميون يتمسكون بالشعارات الطائفية من باب المكابرة لا أكثر باعتبارها انجازهم الوحيد، بوغتوا كما بوغت العالم كله بطوفان الاقصى. هذا الطوفان الذي أولى بركاته اغراق الطائفية تحت موجه الزاخر. فبلمح البصر امتزجت الدماء الزكية غير سائلة عن فوارق الاحزاب. وشاءت حكمة الله ان يكون مفجرها (حماس) سنياً اخوانياً، فيهب لنجدته شيعي امامي (حزب الله). واصبح الاخوان كتنظيم وكفكر على المحك وابتُلوا الابتلاء الجدير بسياستهم.

لا مجال امامهم لأنصاف الحلول والقرارات المبهمة كما اعتادوا ان يفعلوا عبر بيانات انشائية. وحتى السكوت والتملص لم يعد متاحاً. انه القرار الاصعب. فتأييد حماس يعني بالتأكيد ضياع كل رصيدهم لدى الغرب، ذلك الرصيد الذي صرفوا عليه مبادئهم الدينية وصورتهم الاخلاقية، وتذهب تلك الجهود المضنية (بولة بشط) كما يقول المثل الشعبي. تأييد حماس يعني ضمناً

تأييد داعميها وهم بالضبط القوى التي حاربها الاخوان قرابة العقدين ونظَروا ضدها بكل ما استطاعوا من استنضاح للآيات والاحاديث والتأويلات. ثم ان الحرب الطائفية افرزت جيوشاً جرارة مدججة بالسلاح في ادلب وصحارى غرب الفرات والوجه المظلم من اليمن تقف سياسياً ضمن المعسكر الامريكي الاسرائيلي، وكانت محط تبجيل الاخوان من وراء قفازات الوقاية بتسميتها (الجيش الحر) او (فصائل الثورة السورية) او (الشرعية اليمنية)، وتأييد حماس من جانب الاخوان يعني تفريطاً بها.. فما الحل الكيّس لهذه المعضلة؟.

رغم كل ذلك وقف الاخوان من خلال اغلب منابرهم مع المقاومة الفلسطينية في غزة. كثير منهم يتكلم عبر عدسة لامّة لا تري شيئاً خارج حدود القطاع وكأن لبنان واليمن عوالم اخرى لا يربطها بغزة رابط. بعضهم يجود بصفة (شهيد) حسب الهوية المذهبية لكل مجاهد يسقط، فهو قتيل اذا كان شيعياً. واعتبرنا ذلك مرحلة انتقالية لا بد منها بسبب سعة الفجوة النفسية التي عليهم القفز فوقها.

هذا الحدث التاريخي برأيي فرصة امام الاسلاميين للتوقف عن مراودة السلطة المستعصية،

والعودة الى المعارضة وتضميد الجراح الفكرية التي اصابتهم خلال مسعى البحث عن السلطة. لقد اصابهم الكثير من الضرر غير ان هذا الظرف الاستثنائي كفيل بستر العورات اذا اغتنموه بالشكل الصحيح.

الانتقال من حزب سياسي فاسد ومتواطىء الى قوة معارضة ثورية ومبدئية سيفقدهم الكثير من الناس الملتفين حولهم كغثاء السيل، وهذا مكسب بحد ذاته لأن القليل المتبقي بحوزتهم أصدق وأجدى من الكثير المتأرجح. سيصغرون عددياً ويكبرون سياسياً. المسألة التي يعرفونها ولا تطاوعهم انفسهم البشرية على التقاطها ان اتخاذهم موقع المعارضة لا يتيح لهم فقط اصلاح ما فسد من عقيدتهم بل وهو الاهم سيضع في قبضتهم الكارت الحصري لتمثيل الدين. ان تبنيهم قضايا الامة وفقاً للمنهج الديني ذاته سيقطع الطريق على جميع الحركات المتشبهة بالدين لتحقيق مكاسب انتخابية. ستحتاج كل الحركات (الاسلامية) مباركتهم كعربون لنيل رضا الجمهور. وبالنتيجة تصبح تلك الحركات شكلاً من اشكال الاحزاب الغربية التي تنشئها النقابات للدفاع من مصالحها النقابية.

وجاء فوزهم في الانتخابات الاردنية الاخيرة تقديراً شعبياً لموقفهم المبدئي من حرب غزة. فقد اتخذوا موقفاً متميزاً من هذه الحرب وقادوا المظاهرات والتبرعات والفعاليات الاخرى، فكافأهم الشعب الاردني على ذلك. وهو ما يجب ان يتخذوه بوصلة نجاح بعد مهاوي الفشل.

المحتوى

مقدمة..... 5

نماذج من المقاصد الخفية..... 9

وقفة لا بد منها عند موضوعة السبي..... 31

عقدة النقص دافع نفسي خطر..... 39

محمد بن سلمان.. والعبث التاريخي..... 51

فماذا عن الاخوان المسلمين؟ الاخوان المسلمون..... 59

المقاصد الخفية وراء الحركات الدينية المتطرفة

لا خلاف على ذات الله بين البشر. يختلف اسمه فقط بين الأمم، وهذا الاختلاف لا ينفي بل يؤكد وحدانيته. والخلافات الدينية التي نراها مثارها ما دون الله من (آلهة) صغار.. جميعهم من البشر. فالأصنام الحجرية لم يوجدها جاهلون بوجود الله، وإنما أناس موقنون بوجود خالق لهذا الكون، وبأن تلك الأحجار مجرد احجار. أوجدوها رتوشاً ومزوقات للصنم البشري في نفوسهم الذي يريد للشعوب ان تطيعه وتخدمه وتؤلهه.

في كل دين رباني ألف دين بشري.. بعدد القمل الذي يستوطن جسداً عازفاً عن الاغتسال، يعتاش على دمه وينتزع من علماء الأحياء وصفاً بأن ذلك الجسد المستباح بيئة طبيعية للقمل تحفظه من الانقراض.

هذا الكتاب دعوة للاغتسال.

دار ماشكي للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - الموصل
ص.ب 11019
المجموعة الثقافية
07701664335
moshky2019@gmail.com

I . S . B . N
9 789922 738567